بلاغة الالتفات في "المفصل" من سور القرآن الكريم

الباحثة/ أسماء محمد احمد بشير
كلية الآداب – جامعة الملك سعود
المملكة العربية السعودية

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين وبعد:

فإنَّ من أوجه البلاغة العربية التي انفردت بها عن جميع اللغات بلاغة الالتفات في الكلام من جهةٍ مخاطَبَةٍ إلى أخرى جديدة وذلك لاسترعاء السامع وشد انتباهه إلى غير ذلك من الأغراض التي قررها أهل البلاغة.

ويعود السبب في اختياري لهذا الموضوع إلى أهمِّية ربط أساليب البلاغة بالقرآن الكريم لأنه نزل بلسان عربي مبين على وجه التحدي والإعجاز لبلغاء العرب وفصحائهم ولذلك لا شك أنه سيكون محتوياً على أساليب وصور بلاغية لا يحويها كتاب غيره ، كما أن أسلوب الالتفات تكرر في مواضع عديدة من هذا القسم من القرآن فأحببتُ حصر هذه المواضع وتتبعها على وجه الاستقراء والتفصيل.

وقد حاولتُ في هذا البحث المتواضع أن أقوم بدراسة بعض مواضع الالتفات التي يحتويها قسمُ "المُفَصَّل" من سور القرآن الكريم ، وذلك بالرجوع إلى التفاسير التي تعتني بإيراد أوجه البلاغة وشرح أساليبها كتفسير الصابوني والألوسي وابن عاشور وغيرهم.

وكلي أملٌ أن أكون قد وصلتُ إلى نتيجة تتبيَّنُ بها أهداف البحث وأغراضه وأن تكون ثمرةُ البحث تتناسب مع الذوق البلاغي الرفيع الذي تتمتع به أستاذتي الدكتورة/ وداد نوفل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة ، وتمهيد، وقسمين رئيسيين وخاتمة على التفصيل التالي:

المقدمة وفيها (أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، ومصادره ، وخطة البحث ومنهج البحث)

التمهيد وفيه (معنى "المفصَّل" ، وأقسامه ، وسبب تسميته بذلك ، وأقوال العلماء فيه)

القسم الأول: الدراسة النظرية ، وفيها:

- تعريف الالتفات
- صور الالتفات
- شروط الالتفات
- فوائد الالتفات

القسم الثاني : الدراسة التطبيقية ، وفيها أقوم بحصر الآيات القرآنية التي اشتملت على أسلوب الالتفات في جميع سور المفصل في القرآن الكريم.

ثم الخاتمة والفهرس وقائمة المصادر والمراجع.

منهج البحث:

أقوم بوضع الآية القرآنية في أعلى الصفحة ، ثم أفسرها تفسيراً مختصراً يتضح به المعنى من كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ، ثم أبين موضع الالتفات في الآية ، وأبين جمالية الالتفات وفائدته.

مع العزو للمصادر التي تحدثت عن موضع الالتفات والمشاركة في تقرير الجمالية البلاغية للالتفات بأسلوب تتضحُ معه شخصية الباحثة وأخرج به من حيز النقل إلى الإضافة والمشاركة.

القسم الأول : الدراسة النظرية ، وفيها:

- تعريف الالتفات
- صور الالتفات
- شروط الالتفات
- فوائد الالتفات

التمهيد :

معنى المفصَّل : يطلق هذا الاسم على سور القرآن التي تبدأ من سورة (ق) إلى سورة (النَّاس) في آخر القرآن.

أقسامه: ينقسم المفصل عند العلماء إلى ثلاثة أقسام:

١. طوال المفصل وتبدأ من سورة الحجرات إلى آخر النازعات.
٢. أوساط المفصل وتبدأ من أول سورة عبس إلى آخر سورة البينة.
٣. قصار المفصل وتبدأ من سورة الزلزلة إلى آخر القرآن.[١]

سبب تسميته بذلك : سمى المفصل بذلك لقصر سوره وقرب انفصال بعضهن من بعض بوجود بسم الله الرحمن الرحيم بين كل سورتين من سوره ، وذكر بعضهم أنَّ السبب يعود إلى أن آيات هذا القسم من القرآن لم يلحقها النَّسخ فلذلك سميت بالمفصل ، وقيل لأنه سوره قصار فصارت كل سورة بذاتها كالفصل من الكلام.[٢]

أقوال العلماء في المفصل:

اختلف العلماء في بداية المفصل على عدة أقوال ، وهي:

الجاثية – محمد– الحجرات– ق – الصافات–الصف

ولكنَّ القول الذي ذهب إليه أكثر العلماء هو أنه يبدأ من سورة الحجرات.[٣]

١– انظر تاريخ القرآن الكريم لمحمد طاهر الكردي ، ٦٣/١

٢– البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ٢٤٥/١

٣– نفس المرجع السابق.

الالتفات :

لغةً: هو الليُّ والصرفُ والتحول ،تقول لفته يلفته إذا أدار عنقه من اليمين إلى الشمال. ويقال لفت وجهه عن القوم ،صرفه، والتفت التفاتا، وتلفت إلى الشيء والتفت إليه .. ويقال لفت فلانا عن رأيه أي صرفته عنه ومنه الالتفات.[١]

وذكر أبو زكريا الفراء في كتابه معاني القرآن الالتفات في قوله تعالى: (أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا علية آباءنا) [٢] اللفت هو الصرف ويقال مالفك عن فلان أي ماصرفك.[٣]

وفي اصطلاح البلاغيين يقول ابن المعتز ت (٢٩٦هـ) هو (انصرافُ المتكلمِ عن الإخبارِ إلى المخاطبة ، أو انصرافُ المتكلم عن الخطاب إلى الإخبار ، أو انصرافُ المتكلم من الإخبار إلى التكلم أو الانصراف من التكلم إلى الإخبار)[٤]

ووافقه ابن أبي الإصبع وزاد أن الالتفاتَ لا يكونُ إلا في بيت واحدٍ أو آيةٍ واحدةٍ وهذا هو ما عليه جمهور البلاغيين.[٥]

أما ابن الأثير فيرى أنه انتقالٌ من خطاب حاضرٍ إلى غائبٍ أو من غائبٍ إلى حاضرٍ ، أو من فعلٍ ماضٍ إلى مستَقبَل ، أو من مستقبَلٍ إلى ماضٍ، أو غير ذلك مما يأتي.[٦]

وكذلك قال الزمخشري[٧] وأضاف بعد التعبير بأحدهما عن الآخر أو التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره ، وكذلك قال السَّكَّاكيُّ نقلاً عن السيوطي [٨]

ويُسمى الالتفاتُ شجاعةَ العربية ، وسمي بذلك لأن الشجاعةَ هي الإقدام ، وذاك أنَّ الرجل الشجاع يركبُ ما لا يستطيعه غيرهُ ، ويتورد ما لا يتورد سواهُ ، وكذلك

١- انظر لسان العرب لابن منظور مادة لفت

٢ سورة يونس آية (٧٨)

٣- معاني القرآن للفراء

٤-انظر: البديع لابن المعتز صـ ١٠٧ ، تحقيق الدكتور/ خفاجي ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت

٥-انظر التحرير والتحبير لابن أبي الإصبع صـ ١٢٤ ، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ، لجنة إحياء التراث ، مصر ، تحقيق محمد عويضة صـ ٤٠٨

٦-انظر المثل السائر لابن الأثير تحقيق كامل عويضة ، طبعة دار الكتب العلمية الأولى ، ١٩٨٧

٧ تفسير الكشاف ، الجزء الأول ، صـ ١١

٨- انظر الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ، جـ٢، صـ ٢٣٥ ، طبعة دار إحياء العلوم ١٤٠٧، تحقيق محمد شريف سكر

الالتفات في الكلام ، فإن اللغة العربية تختص به دون سائر اللغات وهو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن وإليها تستند البلاغة وعنها يعنعن.[1]

وأوضح الدكتور عبد الرحمن حبنكة أن البلغاء من ناطقي العربية كانت لديهم شجاعة أدبيةٌ بيانية استطاعوا بها أن يفاجئوا المتلقي بالتنقل بين طرق الكلام الثلاث (الخطاب والتكلم والغيبة) مشيرين إلى أغراض بلاغية يريدون التنبيه عليها ، والالتفات له لطائف نفيسة تكرر في القرآن استخدامه فهو فن بديعٌ من فنون القول يتحقق به اقتصاد وإيجازٌ في العبارة.[2]

قال الدكتور/ هلال عثمان (والالتفاتُ في تفسير الجمهور أخصُّ منهُ بتفسير السكاكي لأن النقل عنده أعم من أن يكون قد عُبِّر عنه بطريق من الطرق الثلاث (الخطاب والتكلم والغيبة) ثم بطريق آخر ، أو يكون مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بطريق منها فترك وعدل إلى طريق آخر فيتحقق الالتفاتُ بتعبير واحد عنده ، وعند الجمهور مخصوص بالأول حتى لا يتحقق الالتفاتُ بتعبير واحد ، فكل التفات عندهم التفاتٌ عندهُ من غير عكس ، والمشهور عند الجمهور أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة (الخطاب والتكلم والغيبة) بعد التعبير عن ذلك المعنى بطريق آخر من الطرق الثلاثة بشرط أن يكون التعبير الثاني على خلاف ما يقتضيه الظاهر ويترقبه السامع) [3]

صور الالتفات:

هناك صور للالتفات منها ستٌّ مطردةٌ عند جمهور البلاغيين :

١-الالتفاتُ من التكلم للخطاب ، ووجهه حث السامع وبعثه على الاستماع ، حيث أقبل المتكلم عليه وأنهُ أعطاهُ فضل عناية كما يقول الزركشي ، وخصصه بالمراجعة، كقوله تعالى (ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون)[4] (الأصلُ وإليه أرجعُ ، فالتفت من التكلم إلى الخطاب وفائدته أنه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه وهو يريد نصح قومه تلطفاً وإعلاماً أنه يريد لهم ما يريده لنفسه ، ثم التفت إليهم لكونه في مقام

---

١ انظر المثل السائر لابن الأثير ٤٠٨/١

٢ البلاغة العربية للدكتور/ عبد الرحمن حبنكة صـ ٤٧٩، جـ ١ ، الطبعة الأولى دار القلم بدمشق ١٤١٦هـ

٣ فصول من علم المعاني الدكتور هلال عثمان ، صـ١٣٨ ، الطبعة الأولى ١٤٢٥ ، مكتبة الرشد – الرياض

٤ سورة يس آية ٢٢

تخويفهم ودعوتهم إلى الله)[1] ثم يكمل السيوطي (فإنَّ قومه لما أنكروا عليه عبادته لله أخرج الكلام معهم في معرض التقبيح عليهم بأنه يقبحُ منه أنه لا يعبد فاطره ومبدعه ، ثم حذرهم بقوله (وإليه ترجعون) ، والواو هنا للحال لذلك أصبحت جملة الحال عبارة عن جملتين فاكتمل شرطها)[2]

يقول الدكتور حبنكة : أوجز هنا في العبارة وأشعرهم بأسلوب غير مباشر أنهم قد كان عليهم أن يؤمنوا كما آمن هو (إليه ترجعون) لأنهم سيرجعون إليه وسيحاسبهم ويجازيهم.[3]

٢–الالتفات من الخطاب إلى التكلم كقوله تعالى (قل الله أسرعُ مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون)[4] على أنه سبحانه نزل نفسهُ منزلة المخاطب فالضمير في (قل) للمخاطب وفي (رسلنا) للمتكلم وكذلك قوله تعالى (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيمٌ ودود)[5] فقد التفت، ولعل الغرضَ من الالتفات القصد إلى تنزيه الله تعالى ودفع توهم انصراف صفات الجلال المذكور إلى آلهتهم .[6]

ويقول السيوطي أن مثله لم يقع في القرآن[7] ويقول الدكتور هلال عثمان (جاء الخطاب في قوله (واستغفروا ربكم) ثم التفت إلى التكلم في قوله (ربي) وذلك ليدلل على أن الله واحد لا شريك له.[8]

٣–الالتفات من الخطاب إلى الغيبة يقول الزركشي كقوله تعالى (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم)[9] فقد التفت عن (كنتم) إلى (جرين بهم) وفائدة العدول من خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم لتعجبه من فعلهم وكفرهم ، إذ لو استمر على خطابهم لفاتت الفائدة ، وقيل بأن الخطاب كان أولاً مع الناس مؤمنهم وكافرهم ، ويرى أنه لو قال (جرين

---

١ البرهان للزركشي ٣/٣٦٣

٢– الإتقان للسيوطي٢/٢٣٦

٣– البلاغة العربية ١/٤٨٤

٤– سورة يونس آية ٢١

٥ سورة هود آية ٩٠

٦ البرهان للزركشي ٣/٣٦٥

٧– الإتقان للسيوطي ٢/٢٣٦

٨ فصول من علم المعاني ، للدكور/ هلال عثمان ، صـ١٣٨

٩ سورة يونس آية ٢٢

بكم) للزم الذم للجميع ، فالتفت عن الأول للإشارة إلى الاختصاص بهؤلاء في آخر الآية فعدل عن الخطاب العام إلى الذم الخاص. [١]

وأضاف السيوطي: (خاطبهم خطاب الحاضرين عندما خشوا الهلاك ، ولما أمِنوا غاب حضورُهم كعادة الإنسان إذا أمن غاب قلبه، فلما غابوا ذكرهم الله بصيغة الغياب ، وهذه إشارة صوفية) [٢] .

ولعل رأي الأخوين علوان في كتابهم أنه يستدعي الإنكار فبعد أن يتعرف الإنسان على هذه النعم ثم ينجيه الله من الكرب لم يشكره وإنما بغى وتجبر . [٣]

ويقول الدكتور/ بسيوني أن هذا التشهير بهم والتعجب منهم وافقه الالتفات عنهم لأنهم بكفرهم وجحودهم لم يعودوا أهلا للخطاب. [٤]

وللدكتور حبنكة رأي آخر يقول (ولأنَّ الخطاب موجهٌ لزمرةٍ من الناس إذ منهم مؤمنين ومنهم كافرين فتحدث عن هذه الزمرة بالغيبة إشعاراً لهم بالإعراض والتأنيب على فعلتهم القبيحة المنافية للدين) [٥]

٤- الالتفات من الغيبة للخطاب كقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئا إدّاً) [٦]

يقول الزركشي (لم يقل لقد جاؤوا ، للدلالة على أنَّ من قال مثل قولهم ينبغي أن يكون موبَّخاً منكَراً عليه قوله، كأنه يخاطب قوما حاضرين) [٧] أما الأخوان علوان فذكرا أن الهدف هنا التوبيخ لأن من يزعم اتخاذ الرحمن ولداً لا شك أنه مقتون في دينه ويستنكر منه هذا القول الآثم وينبغي توبيخه ، وتوبيخُ الحاضر أشد ألماً ونكايةً من الغائب) [٨]

١انظر : البرهان ٣٦٦/٣ ، والإتقان للسيوطي ٢٣٦/٢

٢ الإتقان للسيوطي ٢٣٧/٢

٣ من بلاغة القرآن، للدكتور/ محمد علوان ، نعمان علوان ، صـ ٩٧ ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٨ ، الجامعة الإسلامية غزة

٤- انظر من بلاغة القرآن للدكتور بسيوني فيود ، صـ ١٥٧ ، الطبعة الأولى ١٤١٣ ، مطبعة الحسين – مصر

٥ البلاغة العربية للدكتور حبنكة ، صـ٤٨٨- ٤٨٩

٦-سورة مريم آية (٨٨)

٧ البرهان للزركشي ٣٧١/٣ ، والإتقان للسيوطي ٢٣٨/٢

٨ من بلاغة القرآن لمحمد علوان و نعمان علوان صـ ٩٧

ويقول الدكتور فيود (إن هذا الالتفات الغاضب المتوعد لعظم الافتراء على الله بهذا الكلام الشنيع)[١]

ويتحدث الدكتور حبنكة عن فائدة الالتفات في هذه الآية فيقول (أولاً تثبيت المؤمنين على عقيدة التنزيه ، وتأنيب المفترين بارتكابهم لأمر بالغ النكارة والفظاعة والشناعة)[٢]

٥- الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، قال تعالى (والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت..)[٣] وفائدته أنه لما كان سوق السحاب إلى البلد إحياءً للأرض بعد موتها بالمطر دالاً على القدرة الباهرة والآية العظيمة التي لا يقدر عليها غيره عدل عن لفظ الغيبة للتكلم لأنه أدخل في الاختصاص وأدل عليه وأفخم ، وأشار الزمخشري إلى أن فائدة الالتفات للتكلم التنبيهُ على التخصيص بالقدرة وأنه لا يدخل تحت قدرة أحد.[٤]

ويقول الأخوان علوان أن إرسال الريح وإثارة السحب وإحياء الموات لا يتأتى إلا من الله.[٥]

ويقول الدكتور عبد الفتاح لا شين أنه للإشعار بأن منافع العباد في سوق السحاب وإحياء الموات ، ولما كانت فيها المنفعة التفت للتكلم من الغيبة.[٦]

ويقول الدكتور حبنكة أنه إيقاظٌ للذهن للتفكر في منة الله.[٧]

٦- الالتفات من التكلم إلى الغيب ووجهه أن يفهم السامع أن هذا نمط المتكلم وقصده من السامع حضرَ أو غابَ وأنه في كلامه ليس ممن يتلون ويتوجه ويبدي في الغيبة خلاف ما يبديه في الحضور ، وأراد بالانتقال إلى الغيبة الإبقاء على المخاطب من قرعه في الوجه بسهام الهجر فالغيبة أروح له وأبقى على ماء وجهه أن يفوت ، كقوله

---

١ انظر من بلاغة النظم القرآني – بسيوني فيود – ١٦١

٢- انظر البلاغة العربية للدكتور/ حبنكة صـ ٤٩٢

٣ سورة فاطر آية ٩

٤- انظر البرهان للزركشي ٣٦٨/٣ ، والإتقان للسيوطي ٢٣٨/٢

٥- من بلاغة القرآن لمحمد علوان و نعمان علوان صـ ٩٥

٦- المعاني في ضوء أساليب القرآن – عبد الفتاح لاشين – صـ ٢١٩ ، الطبعة الأولى دار المعارف – مصر – ١٩٧٦

٧ البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنكة صـ ٤٩٠

تعالى (يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) إلى قوله (فآمنوا بالله ورسوله)[1] والأصل (آمنوا بالله وبي) وعدل عنه لنكتتين:

إحداهما: دفع التهمة عن نفسه بالعصبية لها.

الثاني: تنبيههم على استحقاقه الاتباع بما اتصف به من الصفات المذكورة من النبوة والأمية التي هي أكبر دليل على صدقه وأنهُ لا يستحقُّ الاتباع لذاته بل لهذه الخصائص.[2]

وللالتفات صورٌ أخرى زاد بها بعض العلماء هذه الصور السابقة التي نص عليها الجمهور ومنها:

- أولاً: التبادل بين الأفعال وصيغتها ، وتحته لطائف عدةٌ منها:

الرجوعُ عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، وهذا القسمُ يقول عنه ابن الأثير (أنه كالذي قبله ، وأنه ليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلباً للتوسع في أساليب الكلام فقط؛ بل لأمر وراء ذلك وإنما يقصد إليه تعظيماً لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيماً للأمر ، وبالضد فيمن أجري عليه فعل الأمر ، ومنه قوله تعالى (قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون)[3] فإنه إنما قال (أشهد الله واشهدوا) ولم يقل (أشهدكم) ليكون موازنا له وبمعناه ، لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاونٌ بهم ودلالةٌ على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن اللفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر)[4]

الرجوع من الفعل الماضي إلى الأمر، إلا أنه ليس كالأول ، بل إنما يفعله توكيداً لما أجرى عليه فعل الأمر لمكان العناية بتحقيقه كما قال تعالى (قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد)[5] وكان تقدير الكلام : أمر ربي بالقسط وبإقامة

١- سورة الأعراف ١٥٨

٢ انظر البرهان للزركشي ٣٦٥/٣ ، والإتقان للسيوطي ٢/ ٢٣٦

٣ سورة هود آية (٥٣)

٤- المثل السائر لابن الأثير ٤١٥ ، البرهان للزركشي ٣٨٦/٣، الإتقان للسيوطي ٢٤٠/٢

٥-سورة الأعراف آية (٢٩)

وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل إلى فعل الأمر عن ذلك للعناية بتوكيده في نفوسهم فإن الصلاة أوكدُ فرائض الله على عباده ، ثم أتبعوها بالإخلاص الذي هو عمل القلب)[1]

الرجوع من الماضي إلى المستقبل كقوله تعالى (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله)[2] للدلالة على أنه في كل وقت بصدد الصدود عن سبيل الله [3]

يقول ابن الأثير اعلم أن المستقبل إا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ، وذلك لأن المستقبل يوضح الحالة التي يقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها)[4]

الإخبار عن المستقبل بالفعل الماضي: وهو عكس ما تقدم وفائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن المستقبل الذي لم يوجد بعدُ كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده، لأن الفعل الماضي يعطي المعنى أنه قد كان ووُجِد ، وإنما يُفعل ذلك إذا كان الفعل المستَقبل من الأشياء العظيمة التي يعظم وجودها كقوله تعالى (ويوم ينفخُ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض)[5] قال (ففزع) بالماضي بعد قوله (ينفخُ) وهو مستقبل للإشعار بتحقُّق الفزع وأنه كائنٌ لا محالة لأن الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به[6] ، وذلك لنبين هيئة الفعل باستحضار صورته ليكون حاضراً للسامع وكأنه شاهدا.

وصيغ التبادل هذه قد نص عليها بعض البلاغيين المعاصرين مثل توفيق الفيل في كتابه بلاغة التراكيب[7] ، ونص عليها غيره من البلاغيين مثل الدكتور عبد الرحمن حبنّكة في كتابه "البلاغة العربية" الصفحة ٤٨٣.

---

١ انظر المثل السائر لابن الأثير٤١٦، البرهان للزركشي ٣٨٦/٣ ، الإتقان للسيوطي ٤٢٠/٢

٢–سورة الحج آية (٢٥)

٣ البرهان للزركشي ٣٨٦/٣

٤– المثل السائر لابن الأثير ٤١٦

٥– سورة الكهف آية (٤٧)

٦–المثل السائر لابن الأثير ٤١٩

٧ بلاغة التراكيب ،دراسة في علم المعاني ، للدكتور/ توفيق الفيل ص٢٩٤–٢٩٨ ، مكتبة الآداب بالقاهرة ، طبعة ١٩٦٧م.

- ثانيا: الانتقال بين صيغ العدد :وقد ذكره التنوخي وابنُ الأثير أيضاً ، قال الزركشي (ومما يقرب من الالتفات أيضاً الانتقال من خطاب الواحد والاثنين إلى خطاب آخر وهو ستة أقسام:

الانتقال من خطاب الواحد إلى الاثنين: كقوله تعالى (أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض)[1]

الانتقال من خطاب الواحد إلى الجمع: كقوله تعالى (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهنَّ لعدتهنَّ)[2]

الانتقال من خطاب الاثنين إلى الواحد :كقوله تعالى (قال فمن ربكما يا موسى)[3]

الانتقال من خطاب الاثنين إلى الجمع: كقوله تعالى (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوَّءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة)[4]

الانتقال من خطاب الجمع إلى الواحد : كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين)[5]

الانتقال من خطاب الجمع إلى التثنية : كقوله تعالى (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان * فبأي آلاء ربكما تكذبان)[6]

وقد نصَّ على هذا النوع العددي من أنواع الالتفات جمعٌ من البلاغيين [7]

- ثالثاً: التفاتُ الضمائر: الذي أشار إليه ابن أبي الأصبع حيث قال (جاء في القرآن قسمٌ غريب لم أظفر بمثاله في الشعر ، وهو أن يتقدم المتكلم في كلامه مذكورين مرتين ثم يخبر عن الأول منهما وينصرف عن الإخبار عنه إلى الإخبار عن الثاني ثم يعود إلى الإخبار عن الأول ، كقوله تعالى (إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) انصرف عن

١- سورة يونس آية(٧٨)

٢-سورة الطلاق آية (١)

٣- سورة طه آية (٤٩)

٤ سورة يونس (٨٧)

٥سورة يونس (٨٧)

٦سورة الرحمن آية (٣٣-٣٤)

٧ انظر: المثل السائر لابن الأثير ٤٢٠، البرهان للزركشي ٣٨٤/٣، الإتقان للسيوطي ٢٤١/٢

الإخبار عن الإنسان إلى ربه ثم إلى الإنسان ، وقال هذا يحسن أن يُسَمى التفات الضمائر)[1]

شروط الالتفات:

نصَّ جمهور علماء البلاغة على أن شرط الالتفات الأول والأساسيَّ هو أن يكون الضمير المنقلُ إليه عائداً في نفس الأمر إلى الضمير المنتقل عنه وأن يخالف مقتضى الظاهر وما يترقبه السامع من كلام.[2]

وزاد بعضهم على ذلك شرطاً وهو أن يكون في جملتين ، وممن نص على ذلك الزمخشري في الكشاف ، والسيوطي في الإتقان.[3]

وخالفهما في ذلك الزركشي في كتابه البرهان وقال (وفي هذا نظر؛ فقد وقع في القرآن مواضع الالتفاتُ فيها وقع في كلامٍ واحدٍ ، ولم يكن بين جملتين)[4]

فوائد الالتفات (أثر الالتفات وقيمته البلاغية) :

للالتفات فوائدُ عامةٌ وأخرى خاصة.

فمن العامة: التفنُّن والانتقال من أسلوب لآخر ، وفي ذلك تنشيطٌ للسامع واستجلابٌ لإصغائه وصيانةٌ له عن الضجر والملال ، لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسلامة من الاستمرار على منوال واحد.

أما فائدته الخاصة فتظهرُ في كل موضعٍ بحسب اللطيفة التي تظهر فيه ، ومنها:

(المبالغة – التعظيم – التوبيخ – الاختصاص – الإعراض– إفادة المعنى – الاختصار والإيجاز– الترفق والتلطف – التعجب..)[5]

---

١ التحرير والتحبير لابن أبي الأصبع صـ ١٢٥

٢– انظر:المثل السائر لابن الأثير٤١٢، التحرير والتحبير لابن أبي الأصبع ١٢٣، البرهان للزركشي ٣٨١/٣

٣ الإتقان للسيوطي ٢٣٩/٢

٤– البرهان للزركشي ٣٨١/٣

٥– انظر : الإتقان للسيوطي ٢٣٥/٢ ، البرهان للزركشي ٣٧٤/٣–٣٧٩، المثل السائر لابن الأثير ٤٢٢ ، البلاغة العربية للدكتور حبنكة ٤٨٢، فصول من علم المعاني للدكتور هلال عثمان ١٤٠، من بلاغة القرآن للأخوين علوان صـ٢٣ – صـ٩٨ ، المعاني في ضوء أساليب القرآن للدكتور/ لاشين صـ٢٢٠– صـ ٢٥٠.

القسم الثاني: الدراسةُ التطبيقيَّـــة:-

قوله تعالى (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِـنْ سُـلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى)[1]

تفسير الآية:

(لما ذكر تعالى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحـق، والأمـر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصـاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسـماء فارغـة عـن المعنـى، سـماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها مـن الأسـماء الباطلـة التـي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تـستحق مثقال ذرة من العبادة)[2]

قال الشوكاني:

ثم أخبر عنهم بقوله : { إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن } أي : ما يتبعون فيما ذكر من التـسمية ، والعمل بموجبها إلاَّ الظنّ الذي لا يغني من الحق شيئاً ، والتفت من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عنهم وتحقيراً لشأنهم.[3]

وهذا الالتفات إلى الغيبة يجسِّـد مقدار هؤلاء عند الله حيث تركهم في منتـصف الآيـة وأعرض عنهم وجعلهم بمنزلة الغائب لتتكون عند قارئ الآية صورةٌ حقيقيةٌ عن الباطل وأهله بأنهم كالمعدومات تماماً لأنهم خلوا من القيم التي يسمو بها الإنسانُ ويرتفع وهـي الامتثال لطاعة الله ، وبقدر التفريط في هذه العبودية يقل مقدار الإنسان حتى يصبح في منزلة المعدومات.

قوله تعالى (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُـوَ مَوْلَـاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ)[4]

١- سورة النجم آية (٢٣)

٢--تفسير السعدي المطبوع بهامش المصحف الشريف والمسمى"تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنـان للشيخ عبد الرحمن السعدي" صـ٨١٩ طبعة مكتبة الرشد الرياض عام ١٤٢٤هـ ، صـ٨١٩

٣- -تح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني ، تحقيق الدكتور/ عبد الرحمن عميرة ، جـ٥، صـ١٤٤ طبعة دار الوفاء – المنصورة ، عام ١٤١٨هـ،

٤- التحريم آية (٤)

تفسير الآية:

الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه صلى الله عليه وسلم عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سببًا لتحريم النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه، وأن لا يشققن عليه، { وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ } أي: تعاونا على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن، {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ } أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول ، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه الكريمة، وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.[1]

قال الألوسي:

{ إِن تَتُوبَا إِلَى الله } خطاب لحفصة وعائشة رضي الله تعالى عنهما على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في المعاتبة فإن المبالغ في العتاب يصير المعاتب أولاً بعيداً عن ساحة الحضور ، ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد .[2]

وإلى نفس هذا الغرض البلاغي من الالتفات أشار الشيخ الصابوني في صفوة التفاسير.[3]

وهذه الصورة القرآنيةُ عند تأملها يتضحُ أثرُ الالتفات ، حيثُ كانت السورة في سياق سرد القصة التي حصلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي أثناء هذا السرد الذي أصغى له المؤمنون ومنهم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ،فجأةً؛ إذا بالخطاب السردي يتحول إلى خطاب موجَّه لشخصيتين معينتين من بين المؤمنين ، وهذا أبلغُ ما يستقر به العتابُ في نفسيهما بخلاف ما لو توجه الخطاب إلى كل زوجة تحمل زوجها على معاقبة نفسه بتحريم الطيبات.

١- تفسير السعدي ، صفحة ٨٧٢

٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم تأليف السيد محمود الألوسي البغدادي ، تحقيق علي عطية ، جـ ١٤/ صـ ٣٤٧، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ،عام ١٤١٥هـ ، جـ ١٤/ صـ ٣٤٧

٣-- صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني ، طبعة المكتبة العصرية بيروت ، عام ١٤٢٤هـ ، صـ ١٥٤٣

قوله تعالى(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا) [١]

تفسير الآية:

احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه، فأخذه الله أخذا وبيلا أي: شديدا بليغا.[٢]

قال الألوسي:

{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ } خطاب للمكذبين أولى النعمة سواء جعلوا القائلين أو بعضهم ففيه التفات من الغيبة وهو التفات جليل الموقع أي أنا أرسلنا إليكم أيها المكذبون من أهل مكة { رَسُولاً شاهدا عَلَيْكُمْ } يشهد يوم القيامة بما صدر عنكم من الكفر والعصيان {كَمَا أَرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً } هو موسى عليه السلام وعدم تعيينه لعدم دخله في التشبيه أو لأنه معلوم غني عن البيان.[٣]

الآيات السابقة لهذه الآية (إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا *وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا *يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا)[٤]

كانت في سرد مشاهد يوم القيامة وهذه المشاهد تتغير فيها حالة الكون إلى حالةٍ فظيعةٍ لم يعهدها البشر في تاريخهم ، فلمّا استغرق النص القرآنيُّ في ذكر هذه التغيرات الكونية الهائلة ، توجَّه إلى المشركين الذين لا شك أنهم كانوا يتابعون خبر هذه الأحداث ولو من باب التعجب والفضول ، ليتمكن من قلوبهم وآذانهم المصغية لخبر تبدل الكون عن حالته يوم القيامة ، ولذلك كان هذا الالتفات كأنه استدراجٌ لأسماعهم ليستقر فيها الخطاب بمنة الله ببعثة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال الصابوني: إنَّ الغرض من الالتفات هو التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.[٥]

١- المزمل آية (١٥)

٢- تفسير السعدي ، صـ ٨٩٣- ٨٩٤

٣- تفسير الألوسي ١٢٠/١٥

٤- سورة المزمل آية (١٤- ١٦)

٥- صفوة التفاسير الصابوني ، صـ ١٥٩٩

قوله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ)[1]

تفسير الآية:

ليكن لديكم معلومًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة، ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد، والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم، من توفيقه للإنابة إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق، أي: الذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده، وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له.

{ أُولَئِكَ } أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان { هُمُ الرَّاشِدُونَ } أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والصراط المستقيم.[2]

قال أبو حيان:{ أولئك هم الراشدون } : التفات من الخطاب إلى الغيبة.[3]

قال الصابوني : وهذا من المحسنات البديعية.[4]

وهذه الآيةُ جاءت في طريقة الإخبار من الله تعالى بمنته على المؤمنين ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم حيث جاء يحبب إليهم الخير و يدلهم على الله ليزينه في قلوبهم

١- الحجرات آية (٧)

٢- تفسير السعدي صفحة ٨٠٠

٣- تفسير البحر المحيط لأبي حيان ، تحقيق عادل عبد الموجود ، ، جـ٨ ، صـ ١١٠ طبعة مكتبة عباس الباز ، عام ١٤٢٢هـ

٤- صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني ، صـ ١٣٧٩ طبعة المكتبة العصرية بيروت ، عام ١٤٢٤هـ ،

ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ثمَّ أتبع الله هذه المنَّة بأن من سعى للاتصاف بهذه الصفات سيكون أمره إلى رشاد ويصلح الله له عمله ودينه ودنياه وآخرته.

قوله تعالى (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ..)[1]

تفسير الآية:

يقول تعالى –مبينا لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة–: { يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ } أي: إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: { بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم[2].

قال أبو حيان:

ولا مخاطبة هنا ، بل هذا من باب الالتفات من ضمير الخطاب في { بشراكم } إلى ضمير الغيبة في { خالدين } . ولو جرى على الخطاب ، لكان التركيب خالداً أنتم فيها ، والالتفات من فنون البيان.

وفي هذا الالتفات بيانٌ في غاية الإبداع حيث ذكر جريان النور بين أيدي المؤمنين والمؤمنات وإحاطته بجميع جهاتهم والحديث عنهم وهم في ضمير الغائب ، فكأنَّ الشوق إلى هذه الحالة استحكم في نفوسهم وهم يتلون القرآن ويسمعونه فقربهم الله إليه بخطاب الحاضر تأكيداً لجدارتهم بهذه الأنوار وزيادة في النعيم فقال (بشراكم اليوم جناتٌ)

١– سورة الحديد آية (١٢)

٢– تفسير السعدي صفحة ٨١٩

قوله تعالى (نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)[1]

تفسير الآية:

(الحديثُ السابقُ كله عن النار) فإذا أعلمناكم بها، وكنتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء منكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدنيه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته، أو يتأخر عما خلق له وعما يحبه الله ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم[2].

قال البقاعي في تفسيره:

و جملة { أن يتقدم } مبتدأ ، وهو مثل « لمن يتوضأ أن يصلي » ويجوز أن تكون الجملة بدلاً من « للبشر » على طريق الالتفات من الغائب إلى الحاضر ليصير كل مخاطب به كأنه هو المقصود بذلك بالقصد الأول فيتأمل المعنى في نفسه فيجده صادقاً ثم يتأمل فلا يجد مانعاً من تعديته إلى غيره من جميع البشر[3].

وإلى نفس المعنى أشار الطاهر بن عاشور بقوله: وفي ضمير {منكم } التفات من الغيبة إلى الخطاب لأن مقتضى الظاهر أن يقال : لمن شاء منهم ، أي من البشر)[4]

ولاشك أنَّ توجيه الخطاب إليهم على وجه التخصيص (منكم) أبلغُ في التأثر وقيام الحجة مما لو كان الخطابُ لجميع البشر ، وهو من باب الاستدراج لأسماعهم بذكر الحديث عن النار وأوصافها حتى إذا استرسلوا في السماع توجه الله إليهم بالخطاب ليستقر في أذهانهم.

قوله تعالى (إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَمَا تَهْوَى الأنفس وَلَقَدْ جاءهم مِّن رَّبِّهِمُ الهُدَى)[5]

تفسير الآية:

أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة

١- سورة المدثر آية (٣٦)

٢- تفسير السعدي صفحة ٨٩٧

٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ، جـ ٢٦ ، صـ ٧٠ طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة

٤- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ، جـ ١٤، صـ ٣٢٤ طبعة دار سحنون للنشر والتوزيع

٥- سورة النجم آية (٢٣)

والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأماني، ويغترون بأنفسهم.[1]

قال الطاهر بن عاشور:

هذا تحويل عن خطاب المشركين الذي كان ابتداؤه من أول السورة وهو من ضروب الالتفات ، وهو استئناف بياني فضمير { يتبعون } عائد إلى الذين كان الخطاب موجهاً إليهم .

وجيء بالمضارع في { يتبعون } للدلالة على أنهم سيسمرُّون على اتباع الظن وما تهواه نفوسهم وذلك يدل على أنهم اتبعوا ذلك من قبل بدلالة لحن الخطاب أو فحواه .[2]

هذا التحويل للخطاب عن مقتضى الظاهر يتبين فيه أحد أغراض الالتفات عند البلاغيين وهو التوبيخ والإعراض ، فلمَّا بين الله حقيقة مزاعمهم وأنها ليست إلا مصطلحات وموروثات أخذوها عن آبائهم على سبيل الظن والوهم ، أعرض الله عن خطابهم توبيخاً لهم على شركهم وتوجه لعباده مبيناً أن كل دعاواهم قائمةٌ على الوهم والظن الباطل مع أن الله أرسل إليهم الهدى ولكنهم أعرضوا عنه.

قوله تعالى (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)[3]

تفسير الآية:

وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، و إن حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم،فيقال لأحدهم: { سَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبليات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين، الذين سلموا من الذنوب الموبقات.[4]

١- تفسير السعدي صفحة ٨١٩

٢- التحرير والتنوير جـ ١٣ ، صـ ١٠٩

٣- سورة الواقعة الآيات (٨٩- ٩٠)

٤- تفسير السعدي صفحة ٨٣٦

قال الطاهر بن عاشور:

وقيل : الكاف خطاب لمن كان من أصحاب اليمين على طريقة الالتفات . ومقتضى الظاهر أن يقال : فسلام له ، فعدل إلى الخطاب لاستحضار تلك الحالة الشريفة ، أي فيسلم عليه أصحاب اليمين على نحو قوله تعالى : { وتحيتهم فيها سلام } أي يبادرونه بالسلام ، وهذا كناية عن كونه من أهل منزلتهم ، و { من } على هذا ابتدائية [1]

لما جعل الله تعالى الناس ثلاثة أقسام :

- السابقون المقربون
- أصحاب اليمين
- المكذبون الضالون

وبين مصير كل قسمٍ فجعل الروح والريحان للسابقين ، وجعل الحميم والجحيم للمكذبين الضالين، كان للالتفات في خطاب أصحاب اليمين معنى بياني بديع لأنهم كانوا في حالة متوسطة بين المقربين والمكذبين، ومن كان متوسطاً في هذه الحالة فإنه يترقب السلامة ويتخوف العذاب ، فلما فصل الله أمرهم ونجاهم التفت إليهم بالخطاب فقال سلامٌ لك من العذاب والنار.

قوله تعالى (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[2]

تفسير الآية:

فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرائع الله.[3]

قال الطاهر بن عاشور :

والخطاب في قوله :{ اعلموا } للمؤمنين على طريقة الالتفات إقبالاً عليهم للاهتمام.[4]

١- التحرير والتنوير جـ ١٣، صـ ٣٤٩

٢- سورة الحديد آية (١٧)

٣- تفسير السعدي صفحة ٨٤٠

٤- التحرير والتنوير جـ ١٣، صـ ٣٩٤

هذا الالتفات فيه ربط بين أمر حسي مشاهد وبين أمر معنوي موجود وهو قسوة القلب وجدب الأرض، والآية ترمي إلى هدف سامي وهو أن يتكون لدى المسلم يقين بأن الله الذي يحي الأرض بعد موتها بالمطر لا يعجزه أن يحي القلوب بعد غفلتها بتوفيقها إلى التوبة والإنابة ، ومناسبة هذه المقارنة هي أن الآية السابقة كانت تتكلم عن ضرورة خشوع القلب وإنابته لله (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)[1]

قوله تعالى (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)[2]

تفسير الآية:

أي: خرجوا من المسجد، حرصًا على ذلك اللهو، وتلك التجارة، وتركوا الخير، {وَتَرَكُوكَ قَائِمًا } تخطب الناس، وذلك في يوم جمعة، بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب الناس، إذ قدم المدينة، عير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها، وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب استعجالا لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك الأدب، { قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ } من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة الله.

خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتًا للرزق، فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.[3]

قال الطاهر بن عاشور:

عُطف التوبيخ على ترك المأمور به بعد ذكر الأمر وسُلكت في المعطوفة طريقة الالتفات لخطاب النبي صلى الله عليه وسلم إيذاناً بأنهم أحرياء أن يصرف للخطاب عنهم فحرموا من عز الحضور . وأخبر عنهم بحال الغائبين ، وفيه تعريض بالتوبيخ .

١- سورة الحديد آية (١٨)

٢- سورة الجمعة آية (١١)

٣- تفسير السعدي صفحة ٨٦٣

ومقتضى الظاهر أن يقال : وإذا رأيتم تجارة أو لهواً فلا تنفضّوا إليها . ومن مقتضيات تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر هنا أن يكون هذا التوبيخ غير شامل لجميع المؤمنين فإن نفراً منهم بَقُوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حين خطبته ولم يخرجوا للتجارة ولا للهو .[1]

قوله تعالى (عبَس وتولى * أن جَاءَهُ الْأَعْمَى)[2]

تفسير الآية:

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي صلى الله عليه ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان صلى الله عليه وسلم حريصا على هداية الخلق، فمال صلى الله عليه وسلم وأصغى إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال: { عَبَسَ } أي: في وجهه {وَتَوَلَّى } في بدنه، لأجل مجيء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: { وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ } أي: الأعمى { يَزَّكَّى } أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

{ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى } أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل بتلك الذكرى.[3]

وهذه السورة يعيدنا الالتفات الموجود في مطلعها إلى أغراض الالتفات التي منها التعظيم ، فمن تعظيم القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لم يتوجه بنسبة الفعل إليه فيقول(عبستَ وتولّيتَ) وكأن المراد بالخطاب مجهولٌ بعيد ، بخلاف الآية التي سبقت معنا في صفحة ١٥ وهي قوله تعالى (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...)[4] فقد حصل فيها عكس ما حصل في سورة عبس، حيث كان الخطاب للغائب ثم توجه إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم للمبالغة في العتاب ، أما لما كان العتاب للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه جاء على غير المعتاد ومقتضى الظاهر في كلام العرب عن

١- التحرير والتنوير جـ ١٣، صـ ٢٢٧- ٢٢٨

٢- سورة عبس آية (١-٢)

٣- تفسير السعدي صفحة ٩١٠

٤- سورة التحريم آية ٤

العتاب، ولكن لما جاء دور التوجيه لحل المشكلة توجه إليه بالخطاب وقال: (وما يدريك لعله يزَّكَّى)[1]

قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)[2]

تفسير الآية:

قول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ممتنا عليه: { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ } أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جملته، ما يعطيه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، من النهر الذي يقال له {الكوثر } ومن الحوض طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته كنجوم السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا.

ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال: { فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ } خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات.[3]

قال محي الدين درويش:

فيه التفات من التكلم إلى الغيبة ، والأصل: فصل لنا ، ولكنه عدل عن ذلك ؛ لأنَّ في لفظ الرب حثاً على فعل المأمور به ، لأن من يربيك يستحق العبادة.[4]

١- سورة عبس آية رقم (٣)

٢- سورة الكوثر آية (١-٢)

٣- تفسير السعدي ٩٣٥

٤- إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محي الدين درويش ، جـ ٨ ، صـ ٤٢٩ ، طبعة دار اليمامة وابن كثير للنشر والتوزيع دمشق عام ١٤٢٢هـ.

المراجع:

- القرآن الكريم
- معاني القرآن للفراء، دار عالم الكتب بيروت ،الطبعة الثانية١٩٨٠م
- تفسير الكشاف لمحمود جار الله الزمخشري، طبعة دار الكتب العلمية بيروت
- تفسير البحر المحيط لأبي حيان، تحقيق عادل عبد الموجود، طبعة مكتبة عباس الباز ، عام ١٤٢٢هـ.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم تأليف السيد محمود الألوسي البغدادي، تحقيق علي عطية، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ،عام ١٤١٥هـ
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ، طبعة دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ،طبعة دار سحنون للنشر والتوزيع
- فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني ، تحقيق الدكتور/ عبد الرحمن عميرة ، طبعة دار الوفاء – المنصورة ، عام ١٤١٨هـ
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي" طبعة مكتبة الرشد الرياض عام ١٤٢٤هـ.
- صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني ، طبعة المكتبة العصرية بيروت ، عام١٤٢٤هـ
- البرهان في علوم القران للإمام بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق مصطفى عطا ،طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢هـ.
- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ، تحقيق محمد شريف سكر طبعة دار إحياء العلوم ١٤٠٧هـ.
- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور.
- البديع لابن المعتز تحقيق الدكتور/ خفاجي، طبعة دار الكتب العلمية بيروت.
- المثل السائر لابن الأثير تحقيق كامل عويضة، طبعة دار الكتب العلمية الأولى ، ١٩٨٧.
- التحرير والتحبير في صناعة النثر والشعر بيان إعجاز القران لابن أبي الإصبع المصري تحقيق محمد عويضة ،الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ، لجنة إحياء التراث– مصر

- المثل السائرفي أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين نصر الله بن الأثير تحقيق كامل عويضة ، طبعة دار الكتب العلمية الأولى، ١٩٨٧م.
- بلاغة التراكيب ،دراسة في علم المعاني ، للدكتور/ توفيق الفيل، مكتبة الآداب بالقاهرة ، طبعة ١٩٦٧م.
- المعاني في ضوء أساليب القرآن – عبد الفتاح لاشين –، الطبعة الأولى دار المعارف – مصر – ١٩٧٦.
- تاريخ القرآن الكريم لمحمد طاهر الكردي
- فصول من علم المعاني الدكتور هلال عثمان ، ، الطبعة الأولى ١٤٢٥ ، مكتبة الرشد – الرياض
- من بلاغة القرآن، للدكتور/ محمد علوان ، نعمان علوان، الطبعة الثانية، ١٩٩٨، الجامعة الإسلامية غزة.
- من بلاغة القرآن للدكتور بسيوني فيود الطبعة الأولى ١٤١٣ ، مطبعة الحسين – مصر.
- إعراب القرآن الكريم وبيانه ، محي الدين درويش ، طبعة دار اليمامة وابن كثير للنشر والتوزيع دمشق عام ١٤٢٢هـ.
- البلاغة العربية للدكتور/ عبد الرحمن حبنكة، الطبعة الأولى دار القلم بدمشق ١٤١٦هـ.